أ. الشيخ محمد علي التسخيري
الامين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

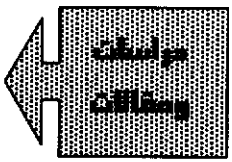

ذكر الله... طريق الكمال

مقدمة:

ذكر الله جل جلاله نغم المؤمنين ونداء القلوب الواهة ولهفة الفطرة الولهى.

ذكر الله: حقيقة العارفين، وزاد السائرين، وانابة المستغفرين.

ذكر الله: هو العمل الاكبر، وهو خير مما يجمعون، ويعدون ويبنون.

ذكر الله: حقيقة العبادة، ومخ الدعاء، ومسيرة الكمال، مسيرة كل شيء.

ذكر الله: تسبيحة الكائنات، وحقيقة الوجود.

انه الروح التي تصبغ المسيرة المؤمنة فتنتج الاطمئنان، والسير الحكيم المتوازن، والتضحية ونكران الذات الضيقة، والانفتاح على الذات المتسعة اتساع المطلق الذي تنشد به.

انه ينسجم تماما مع ميول الانسان وطموحاته ويحقق للانسان خلال مسيرته الحضارية اعظم اشباع واعظم ضمان في نفس الوقت من الطغيان. فلنقف قليلا مع واقعنا الوجداني، ولنسبر تاملاتنا في الذات لنكتشف هذه الحقيقة الناصعة.

ان الانسان يقع موضوعا لدراسات لاتحصى، لاختلاف الجوانب وتعددها، الا ان اهم دراسة انسانية - كما يبدو - هي تلك التي تتناوله ككائن ارادي متكامل.. وهي - الدراسة - تستهدف التعرف على معرفة الكمال الانساني وسبل الوصول اليه من خلال التأمل الداخلي للوصول الى معرفة جديدة لمتطلباته وعناصر الجذب المتوفرة في اعماقه والتي تسير به نحو الكمال، والعوامل التي تساعده في ذلك، والظروف المناسبة لمسيرة كهذه.

وسواء سرنا مع النصوص التي تنتسب الى خالق الذات لنكتشف منها حقيقة الذات واهداف خلقتها وسبل وصولها الى كمالها، او تعمقنا في تأملاتنا لهذه الذات، نستجلي معالمها ونستقرىء جوانبها استقراء حضوريا شهوديا، ونحس عن كثب بطاقاتها وميولها وارادتها ومساحاتها الفطرية، فان النتيجة واحدة وان اختلفت في التفاصيل بين منهج ومنهج، ولكن الا ينبغي ان نجمع بين المنهجين؟

ان النصوص الاسلامية تدعو الى استكناه النفس بوضوح حتى اشتهر ان (من عَرَفَ نَفسه فقد عَرفَ ربه) لان النفس اقرب الحقائق الى الانسان، يعيشها واحدا، ويستقرئها متعمقا في وجوده هو، مستذكرا قوله تعالى: (وفي انفسكم افلا تبصرون) [١] ومنتظرا الآيات الالهية الموعودة عبر (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق). [٢]

انه يخشى ان يغترب عن ذاته، لأن الاغتراب عنها يعني الانعدام الانساني (ولاتكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم). [٣]

وانه يحب ذاته، ولايريد ان يكون الحب اعمى، فينكفىء على هدفه وهو لايشعر، كمن زين له سوء عمله.

وانه يريد أن ينسجم مع ميوله ونزعاته، الا انه يراها متضاربة متناقضة حينما يطلق عقالها، فلابد إذن من تقييدها والسيطرة عليها وكبح جماحها.

وحينئذ فمن الطبيعي له ان يعرف هذه الميول، ويكتشف درجات الجموح، وبالتالي يتوصل الى عملية تنسيق في الاشباع، هي بين الكبت القاتل والجموح المهدم، وحينئذ يستطيع ايضا ان يحقق الهدف من خلقة هذه الميول، فهي لم تخلق عبثا.

نعم ان كل ميل في الوجود الانساني في اصله ضروري لتحقيق هدف الخلقة وهذا ما يشهد به الوجدان، وحتى الميول التي يبدو انها سلبية الآثار هي في الواقع ومن حيث الاصل ضرورية الحصول لتحقيق الكمال المطلوب، فالميل الغضبي، وحس الاستفادة من الآخرين، وقبل ذلك حب الذات، وطلب القدرة والتسلط وغيرها، هي ظواهر في اصلها ايجابية ما لم تتحول الى حالات جامحة.

* * *

والكمال الانساني المستهدف ليس نقطة معينة محددة رغم كون الكائن البشري محدودا، ورغم تصور نقاط معينة للكمال في المخلوقات الاخرى.

وبتعبير ادق: فقد اعتبر كمال اي موجود عبارة عما تقتضيه اخر فعليّة له، فكمال شجرة الكمثرى مثلا هو ما تقتضيه آخر فعلية لها من الانتاج النباتي، اما الانسان فان التأمل في حاله يفسح المجال للاطلاق في تصور حالاته الفعلية ومقتضياتها، فلايمكن، أو فلنقل لايمكننا ان نقف على حد نتصور معه آخر كمال، ونعتبر الكمالات الاخرى مقدمة لها.

ومن هنا لانجد العبارات المذكورة في النصوص الاسلامية تعين هذه الدرجة، بل نجدها تفسح المجال الواسع للامتداد بعملية الكمال.

ان القرآن الكريم يركز هدف الخلقة الانساني في العبودية فيقول: (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)،[٤] في حين تركز نصوص اخرى على معرفة الله وهما امران متلازمان الى حد التناسب التام في المستوى، وهما

مفهومان متسعان لايقفان عند حد، فمهما قرب الانسان من ربه انفتحت امامه آفاق ارحب من القرب الالهي فهو يكدح اذن دائما للوصول الى ربه، وتحقيق لقائه الكريم، ويبقى الرب لا محدودا، ويبقى الكدح معه متواصلاً متواصلا.

(يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه). [٥]

وهكذا نلاحظ ان العبودية الانسانية لله تعالى هي سر كمال الانسان، وان التصور الاسلامي بعد ان يشخص نقطة الكمال المطلق في الله تعالى يرى ان درجة العبودية كلما ارتفعت فان ذلك يعني ارتفاع درجات الكمال بنفس المستوى.

أليس الكمال هو القرب من اكمل الحقائق؟

ثم ان هذا القرب يتناسب طردياً مع مستوى المعرفة الانسانية للحقيقة الكبرى.

هذا وقد احتوت الفطرة على الميول الكبرى التي تؤمّن سير الانسان نحو هذا الهدف، فهناك الميل الذي لايتوقف نحو المعرفة، وهناك الميل العام نحو التكامل، وهناك ميل التدين الاصيل في النفس الانسانية، وهو ما تشهد له كل مراحل التاريخ الانساني، وان اختلفت التطبيقات.

واذا كانت الميول الثلاثة الكبرى الماضية، بالاضافة الى غريزة حب الذات، قد ركزت في الفطرة لتحقيق السير المنظم نحو الهدف، فان الرحمة الالهية منحت هذه الفطرة هدايتين اخريين لتحقيق الانسجام بين هذه الميول العمياء، وهما الهداية العقلية والهداية التشريعية.

اما الاولى فيسيطر بها على غرائزه، ويحد من تأثيراتها ويهذبها، كما يتخلص بها من سجن الاطر المادية، ويتعالى بها على الواقع بهدف تغييره.

وأما الثانية فتعني ما اعطاه الوحي الالهي من تعاليم تفتح السبيل امام

البصيرة، وهي بدورها تنمي العقل وتقويه، وترسم السبل التي يجب ان يسلكها العقل في مختلف المجالات، وتعطي بالتفصيل اسلوب تنظيم الميول الانسانية واشباعها بشكل متوازن حكيم.

فمجال السبق في تاثير انماط الهداية نحو الهدف يتجلى - اذن - في وجود دوافع ذاتية نحو التكامل، ودوافع ذاتية لحفظ الفرد والنوع الانساني الى مدى طويل يتناسب مع عظمة هدف خلقة الانسان، ووجود الارادة الانسانية، كصمام امان، ووجود العقل الذي يستفيد من كل شيء، وكذلك العطاء التشريعي الهادي من قبل منبع محيط عالم قدير.

* * *

ولنركّز الآن على ميل التدين الذي قلنا عنه انه اصيل في حياة الانسان.. انه في الواقع ميل الايمان بالمطلق، والتعبير عن هذا الايمان بكل ما يمكن.

انه يولد مع الانسان، ويتعاظم ويبقى يشده بشكل مبهم الى القدرة الكبرى في الكون، لينقذه من اعظم سلبية حضارية ابتلي بها التاريخ الانساني، وهي سلبية اللا انتماء، وعدم الايمان والالحاد ، الا ان هذه السلبية المحطمة تواجه - كما يقول المرحوم الشهيد الامام الصدر - سلبية اضخم منها، وهي مشكلة الغلو في الانتماء، بتحويل النسبي الى مطلق، حيث يجرد الذهن البشري، المؤثر النسبي من ظروفه ويحوله الى مطلق، والى إله يقف عقبة في طريق تطور الانسان بشكل طبيعي: (لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا).[٦]

ويضيف (فكل محدود ونسبي اذا نسج الانسان منه في مرحلة ما مطلقا يرتبط به على هذا الاساس، يصبح في مرحلة رشد ذهني جديد قيداً على الذهن الذي صنعه بحكم كونه محدوداً ونسبياً).[٧]

والايمان بالله هو العلاج الاكيد، لانه يرفض مشكلة اللانتماء من جهة، كما

يرفض مشكلة الغلو في الانتماء من جهة اخرى.

(يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه). [٨]

(ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير). [٩]

ونظام العبادات ـ ومنه الدعاء ومضمونه ـ هداية تشريعية لهذا الميل، تؤكد من جهة على عنصر الارتباط، وتنظم هذه العلاقة دونما سماح للعناصر الوهمية كي تنسج آلهة وهمية تنحرف بالانتماء الى الشرك، وهكذا يتم التنسيق في عمل انواع الهداية.

ميل اصيل نحو التدين ينفي مشكلة الضياع.

وعقل متدبر يقود للايمان بالواحد المطلق الخالق، ورسله المكرمين.

وهداية تشريعية تنظم اسلوب اشباع هذا الميل، ليحقق هدف التكامل ويسير به متوازناً نحو الكمال المطلوب.

وأجمل واشمل ما يركز عليه نظام العبادات ذكر الله تعالى: انه الحل الاصيل الاصيل، والاشباع الجميل الشامل، انه كما قلنا تسبيحة الكائنات، وترنيمة العشق الازلي التي لاينضب معينها، وانه مخ العبادة، واغنية الروح المتعبدة، تنطق به كل حقيقة في الكون الكبير. وتعجن به كل جارحة في كون الوجود الانساني الصغير والكبير معا، وتطهر به النفوس ويبقى مصباح الهداية في كل منعرج مظلم.

انه الحياة الحقيقية اذ يقول(ص): مثل الذي يذكر ربه والذي لايذكر، مثل الحي والميت. [١٠]

ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم. [١١]

ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل في الفارين. [١٢]

ان الايمان بالله تعالى ـ من خلال ذكر الله ـ يتنامى في الوجود الانساني، حتى

يتحول المعقول المطلق الى محسوس مطلق، يملأ وجود الانسان بهجة ما بعدها بهجة، ويشد هذا الوجود الصغير الى العالم الكبير الكبير، بل ويفنيه فيه ليصل الى مرحلة ينسى فيها ذاته المحدودة، ويعيش مع ذاته المتسعة لكل الوجود، وميوله المنسجمة مع كل ما يريده الحبيب، حتى لينطلق نداء تلميذ رسول الله(ص) علي(ع) (الهي كفى بي عزا ان اكون لك عبدا، وكفى بي فخرا ان تكون لي ربا، انت كما احب فاجعلني كما تحب).[١٣]

ودعاء ولده الحسين(ع) في موقف عرفات: (وانت الذي ازلت الاغيار عن قلوب احبائك، حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا الى غيرك... ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ يا من اذاق احباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين، و يا من ألبس اولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يديه مستغفرين، انت الذاكر قبل الذاكرين، وانت البادىء بالاحسان قبل توجه العابدين...)؟[١٤]

وبالتالي دعاءولده علي بن الحسين زين العابدين(ع)الذي علّمه تلميذه أبا حمزة الثمالي: (الهي لو قرنتني بالاصفاد، ومنعتني سيبك من بين الاشهاد، ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي الى النار، وحلت بيني وبين الابرار، ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك، ولاخرج حبك من قلبي سيدي اخرج حب الدنيا من قلبي، واجمع بيني وبين المصطفى وآله خيرتك من خلقك، وخاتم النبيين محمد(ص)، وانقلني الى درجة التوبة اليك، واعني بالبكاء على نفسي، فقد افنيت بالتسويف والآمال عمري).[١٥]

ان المؤمن يعيش مع الله ويعيش الله معه وما ألذّ هذه المعية يقول(ص): اذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، واذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه.[١٦]

وعنه(ص): «ان الله يقول انا مع عبدي ان هو ذكرني وتحركت بي شفتاه».[١٧]

انها اذن تربية القرآن للمؤمنين كي يعيشوا مع الذكر.

(واذكر ربك كثيرا)[١٨] وفي كل حالة يكون الزاد هو ذكر الله: (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة).[١٩]

وقد قلنا ان ذكر الله تعالى يعني وصل الذات المحدودة بالحقيقة المطلقة وبالتالي توسعة الذات نفسها الى كل ما يرضاه الحبيب الحبيب ، وقد اشتهرت عن اهل البيت(ع) قولتهم: (رضا الله رضانا اهل البيت).[٢٠]

كما أن ذكره تعالى عصمة للمرء من الانحراف.

يقول الامام الصادق(ع): (من اشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيرا لا اعني: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر، وان كان منه، ولكن ذكر الله عندما حلَّ وحرَّم، فان كان طاعة عمل بها، وان كان معصية تركها).[٢١]

انه الطمأنينة الكاملة والعطاء الفياض بالامان.

(ان الانسان خلق هلوعا * اذا مسه الشر جزوعا * واذا مسه الخير منوعا * الا المصلين).[٢٢]

فلماذا لا يعيش الانسان ذكر الله في كل حالة؟ يقول (ص) «من اكثر ذكر الله احبه الله ومن ذكر الله كثيرا كتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق».[٢٣]

ويطلب الى اصحابه ان يستعينوا بالله ليرزقهم الاجتهاد في الدعاء فيقول: «اتحبون ايها الناس ان تجتهدوا في الدعاء؟ قالوا: نعم يا رسول الله قال، قولوا اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».[٢٤]

وهذه صورة ينقلها الامام الصادق(ع) عن ابيه الامام الباقر(ع) فيقول:

«وكان أبي كثير الذكر، لقد كنت امشي معه وانه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وانه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت ارى لسانه لازقا بحنكه يقول (لا اله الا الله) وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لايقرأ منا أمره بالذكر».[٢٥]

وربما يعن للبعض من السذج، متدينا كان او غيره، ان يتصور الذكر عملا بديلا، وحالة مريحة تبرر البعد عن العمل الاجتماعي المنهك، بل ربما تصور الجاهلون ان الانهماك في العمل الاجتماعي يشكل مانعا عن الذكر الالهي والتعبد به، الامر الذي يدفعهم لتركه!!

ولكن الحقيقة الناصعة تبعد عن هذا التصور البسيط، ذلك ان الذكر اتصال دائم بالله، وسياحة دائمة في آفاق الله، ومسجد يتسع ليشمل الحياة كلها، بدل ان يتلخص في حيطان مسجد قديم، أو يترك المسجد لحاله، نلجأ اليه عندما يموت لنا ميت، او نعمل على عقد قران، كلا فالحياة كلها مصلى والآفاق كلها سياحة، والعمل كله ركوع وسجود، والجهاد نفسه عبادة روحها ذكر الله، وهدفها تحقيق رضا الله، وسبيلها سبيل الله.

يقول تعالى:

(ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم* التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين).[٢٦]

ويقول تعالى:

(محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود). [٢٧]

ويقول تعالى:

(فاستقم كما امرت ومن تاب معك ولاتطغوا انه بما تعملون بصير ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من اولياء ثم لاتنصرون واقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين). [٢٨]

وهكذا كان سيد الخلق محمد(ص) لايقوم ولا يجلس الا على ذكر الله، يتفرغ عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه، ويبكي حتى يبتل مصلاه من خشية الله عز وجل فقيل له: اليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «افلا اكون عبدا شكورا». [٢٩]

وكان يدعو الى حياة الذاكرين ومجالسهم فيقول: اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا وما رياض الجنة؟ قال : حلق الذكر. [٣٠]

وهكذا كان اصحابه المخلصون رضي الله عنهم وأهل بيته الطاهرون(ع).

وقد دخل ضرار بن ضمرة على معاوية بعد ان قتل علي(ع) فقال له معاوية: صف لي عليا فقال اعفني فقال: أقسمت عليك لتصفنه، قال:

أما اذا كان ولابد. فانه كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه، وتنفلق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب، كان فينا كاحدنا يجيبنا اذا سألناه، ويأتينا اذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا وقربنا منه لانكاد

نكلمه هيبة له يعظم اهل الدين، ويقرب المساكين ولايطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله.

واشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد ارخى الليل سدوله، وغارت نجومه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين يقول:

يا دنيا غري غيري ابي تعرضت ام الي تشوقت؟ هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثا لارجعة لي فيك فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

فبكى معاوية وقال: رحم الله ابا الحسن قد كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار فقال: حزن من ذبح ولدها في حجرها فهي لايرقى دمعها ولايخفى فجعها). [٣١]

هذا الامام يقول:

«وان الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله عزت آلاؤه في البرهة بعد البرهة وفي ازمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذوات عقولهم». [٣٢]

وفقنا الله جميعا للقيام بحقه ونيل نوائله وفواضله وتلاوة كتابه والعمل بتعليماته واذاقنا حلاوة ذكره لتمرع به القلوب وتحيى به النفوس انه السميع المجيب.

الهوامش:

١ - الذاريات: ٢١ .
٢ - فصلت: ٥٣.
٣ - الحشر" ١٩.
٤ - الذاريات: ٥٦.
٥ - الانشقاق: ٦.
٦ - الاسراء:٢٢.
٧ - الفتاوى الواضحة: ٧٠٧-٧٠٩.
٨ - الانشقاق: ٦.
٩ - فاطر: ١٣.
١٠ - المصابيح للبغوي ج ١ ص ١٤٨.
١١ - اخرجه ابو نعيم في الحلية عن ابن عمر بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.
١٢ - اخرجه الطبراني عن ابن مسعود ورواه، الكليني في الكافي ج ص ٥٠٢.
١٣ - مفاتيح الجنان، مناجاة امير المؤمنين(ع).
١٤ - المصدر: دعاء الامام الحسين في عرفات (مفاتيح الجنان).
١٥ - مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص ٥٨٢.
١٦ - اخرجه مسلم ج ٨ ص ٦٧ ورواه البخاري الفتح (٧٥٣٦).
١٧ - اخرجه الحاكم ج ١ ص ٤٩٦.
١٨ - آل عمران: ٤١.
١٩ - الاعراف: ٢٠٥.
٢٠ - المجلسي، بحار الانوار ٤٤:٣٦٧.
٢١ - الكليني، اصول الكافي ٢:٨.
٢٢ - المعارج: ٢٠-٢٢.
٢٣ - الكافي للكليني ج ٢ ص ٤٩٩.
٢٤ - اخرجه الحاكم ج ١ ص ٤٩٩.
٢٥ - الكليني، اصول الكافي٢ : ٤٩٩.
٢٦ - التوبة:١١١ ـ ١١٢.
٢٧ - الفتح: ٢٨.
٢٨ - هود: ١١٢ ـ ١١٥.
٢٩ - رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم.
٣٠ - مصابيح السنة للبغوي ج ١ ص ١٤٩.
٣١ - الانوار العلوية للشيخ جعفر النقدي.
٣٢ - بحار الانوار ٦٩ : ٣٢٥.